

النظرة التأملية في شعر ابن جبير الأندلسي

أ.م.د. بشرى عبد عطية

جامعة بغداد / كلية علوم الهندسة الزراعية

Bushra_28abed@yahoo.com

bushra.abd@coagri.uobagdad.edu.iq

الملخص:-

يتناول البحث دراسة الشعر التأملي لدى ابن جبير الأندلسي، ويبدأ بالوقوف على دلالة لفظة التأمل في كتب اللغة والأدب، فضلا عن بيان دلالتها لدى كل من الفلاسفة وعلم النفس، ومن ثم يعرج على تتبع نزعة التأمل لدى الشعراء في العصور السابقة، بدءاً من عصر ما قبل الإسلام حتى عصر ابن جبير موردين الشواهد الشعرية التي تظهر ملامح النزعة التأملية في الشعر العربي.

وقد قسم البحث إلى محورين تناول الأول منهما دوافع النظرة التأملية في شعر ابن جبير وتمثلت في تجارب الحياة، والاعتراب، والزهد، والحكمة، أما في المحور الثاني فقد عرضنا السمات الفنية للشعر التأملي، وكان أبرزها الوقوف عند البناء اللغوي من حيث الألفاظ المفردة والتراكيب المستعملة، كما وقفنا عند الصورة الشعرية وأنواعها التي اعتمدها ابن جبير في بث نظريته التأملية.

وظهر من البحث أن النظرة التأملية لدى الشاعر ابن جبير الأندلسي بثت في شعره على هيئة أبيات شعرية ضمن أغراض شعره المختلفة، فضلا عن ورودها في مقاطعات شعرية، وقد اتسمت نظريته التأملية بالترتيب المنطقي والسمة العقلية والاعتراض من تجارب الحياة، وكان للموازنة بين العقل والعاطفة دورها في صياغة شعره التأملي، فضلا عن توظيفه للاستدلال وأسلوب الحجاج وقد صاغ كل ذلك في نصوص شعرية أظهرت عمق تأثر الشاعر بأحداث مجتمعه ودوره في توجيهه.

الكلمات المفتاحية: التأمل، شعر، ابن جبير، الأندلس، الدوافع

The Contemplative Vision in the poetry of Ibn Jubeir al-Andalusi Contemplative ,poetry ,Ibn Jubeir ,Andalusi ,motives

Abstract

The research deals with the study of the contemplative poetry of Ibn Jubayr. The research began with the definition of meditation as a language and a term with the presentation of examples of contemplative poetry in the Arab poetic heritage.

In the first part , I studied the motives of the contemplative poetry, which were represented in the experiences of life, alienation, asceticism and wisdom. In the second chapter, I dealt with the artistic features that emerged in the poetry of meditation and were represented in the artistic construction and poetic image.

From the research, we find that the poetry of meditation combines both mental attribute and emotion, and was like the poet's vision and reflections in life and came in the form of poems or poems arranged within different purposes and distinguish the meditative poetry in clarity and simplicity as well as carrying human and instructive values

المقدمة:-

لا بد لنا في بدء رحلتنا لدراسة النظرة التأملية في شعر ابن جبير أن نتتبع دلالة التأمل في جذوره اللغوية ودلالته الاصطلاحية، والوقوف عند مفهوم التأمل لدى علم النفس والفكر الفلسفي، فضلا عن استعراض بواكير النزعة التأملية في الشعر العربي منذ نشوئه حتى عصر شاعرنا محمد بن احمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكناني، الرحالة العربي الشهير، الذي ولد بمدينة بلنسية شرق الأندلس سنة (٤٥٠ هـ) واخذ تعليمه من شيوخها وعلمائها، كما اخذ العلم من علماء بغداد ودمشق ومكة والإسكندرية في رحلته، وتوفي سنة (٦١٤ هـ) (المقري، ٢: ١٩٨٦/٣٨٢).

أولاً:- التأمل لغة:-

التأمل في اللغة يأتي من مادة أمل، وهو ((التثبت، وتأملت الشيء أي نظرت إليه مستتباً له ((ابن منظور، ٢٠٠٠: مادة أمل/١١: ٢٧)، وقيل:- ((وتأمل الرجل تلبث في الأمر والنظر، وانتظر،

قال زهير بن أبي سلمى:-

تحملن بالعلياء من فوق جرثم.

تأمل خليلي هل ترى من طعائن

وقال المرار بن سعيد الفقعسي:-

تأمل ما تقول وكنت حياً
قطامياً تأمله قليلُ.

وقيل تأمل الشيء إذا حقد نحوه، وقيل:- تدبره، وأعاد النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه ((الزبيدي، مادة أمل: ٣١٤/٧))، ومما تقدم نخلص إلى أن مفهوم التأمل لغوياً يراد به التمثل والنظر في أحداث الحياة بعين العقل والاعتبار بأحوال الزمان، ومحاولة تجلي خفايا الأمور، فضلاً عن اجتماع المعاجم واتفاقها على مفهوم التأمل في المصطلح اللغوي.

ثانياً:- التأمل اصطلاحاً:-

يرتبط التأمل بالنفس الإنسانية الواعية وعمق نظرة المرء للحياة، من هنا سنبدأ مع مفهوم التأمل لدى علماء النفس، فهو يعني لديهم ((توجيه ذهن صوب التجارب والمفاهيم والمدركات والأفكار، والتركيز عليها بغية اكتشاف علاقة جديدة أو استخلاص نتائج يسترشد بها العقل في المستقبل)) (رزق: ٧٩)، أما في الفكر الفلسفي فالتأمل هو ((استعمال الفكر بخلاف التدبر الذي هو تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتأمل بهذا المعنى مرادف للنظر والتفكير، ومقابل للفاعلية والنشاط العملي)) (صليبا ١٩٨٢: ٢٣٢)، وفي الأدب عُرف التأمل على انه ((استغراق الذهن في موضوع تفكيره إلى حد يجعله يغفل عن الأشياء الأخرى بل عن أحوال نفسه، وعند بعض صوفية القرون الوسطى، درجة سامية من درجات المعرفة)) (وهبة والمهندس ١٩٨٤: ٥٠)، وبذلك يكون التأمل في الاصطلاح الأدبي وصفاً يراد به ((حالة الاستغراق الذهني في عملية جد واعية لتداعي الصور والأفكار)) (عبد النور، ١٩٧٩: ٥٧)، أما في المضمار الشعري فهناك من عدّ التأمل ((حالة تحسسية عقلية في جوهرها، تثير في الغالب أسئلة كافية، وتتفاوت فيها درجات الوعي، وتتراوح من الطبيعة إلى ما وراءها، وتنمخض عن عمل شعري ذي بعد إنساني شمولي في الغالب))

(الخطيب، ١٤٢١هـ: ١٧)، فالتأمل هنا تجاوز حيز التعبير عن الذات وما تكابده إلى الحيز الموضوعي الأشمل، ولا يقلل ذلك من قيمة التجربة الشعورية للشاعر، لان الذاتية (لا ينبغي أن تفهم على أن العمل الفني تعبير ذاتي خاص؛ فالمعطيات المادية التي تمثل المؤثر الخارجي لتجربة الشاعر هي في عمومها معطيات موضوعية، تشمل ضمن ما تشمل على وعي المجموعة، وبهذا يكون المقصود بالذاتية في التجربة الشعورية هو إن هذه المعطيات الموضوعية عاينها الشاعر بوجوده الذاتي، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان تعمق الشاعر في ذاته هو كإنسان يعد في الواقع معايشة للإنسان بشكل عام، فهو يعيش الإنسانية كلها في عمومها منذ الأزل) (بعلي، ٢٠١٥: ١٧٩)، وذلك ما يجسده الشاعر في شعره التأملي.

ثالثاً:- النزعة التأملية في الموروث الشعري العربي:-

عُرفَ جل الشعر العربي منذ نشأته بحسبته وماديته فقد كان الشاعر الجاهلي مرتبطاً بالمحسوس، وشخص المتخيل باللمس، إلا أن ذلك لم يقف حائلاً أمام تأمله في مجريات الحياة والاعتبار بأحداثها والنظر في صروف الدهر، وبرز ما استوقفه فيها ثنائية الحياة والموت وحتمية الفناء، وفي ذلك قال ليبيد بن ربيعة :-

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى: كل ذي لب إلى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيم لا محالة زائلُ (عباس:١٩٦٣،:٢٥٤-٢٥٥)

كما كان وقوفهم على الأطلال يمثل فسحة لإعلان نظرتهم التأملية باستحالة دوام الحال، وحتمية تغير الأحوال، يقول عبيد بن الأبرص:-

لمن الديارُ ببرقه الروحان درست وغيرها صروف الزمان
فوقفت بها ناقتي لسؤالها فصرفت والعينان تبتدران

(نصار:١٩٥٧: ١٣٠)

ومع مجيء الإسلام تغيرت النظرة إلى أمور الحياة، إذ انه وجه الفكر توجيهها يتلاءم مع مبادئه، ودعا إلى التأمل في آيات الله والتدبر في بديع صنعه وعظيم سلطانه ونفاذ حكمته، كما في قوله تعالى ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير)) (العنكبوت:٢٠)، وقد أوجد بذلك بواكيراً للاتجاه التأملي الذي كان الطابع الديني هو السمة المميزة له، ومن ذلك قول كعب بن زهير:-

يسعى الفتى لأمر ليس مدرکہا والنفس واحدةٌ والهـم منتشرُ
والمرءُ ما عاش محدودٌ له أملُ لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ

(فاعور (د.ت):٣٧)

وما إن نحت الرحال في مراعب العصر العباسي حتى تطالعنا ملامح تطور الحياة في جميع نواحيها مما انعكس على سعة أفق الشاعر، وقد ساعده في ذلك الاطلاع على كتب الفلسفة والمنطق، وازدهار الحياة الثقافية، فضلاً عن ظهور الحركات الدينية واتجاه التصوف، كما برز في هذا العصر

شعراء عرفوا بالتأمل والنزعة الفلسفية من أمثال أبي العلاء المعري والمنتبي اللذين أثرا بشكل كبير في شعراء الأندلس، ومن شعرهم الذي حمل نزعتهم التأملية قول المنتبي:-

إذا ما تأملتَ الزمانَ وصروفهُ تيقنتَ أن الموتَ صرَبٌ من القتلِ
وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمَلَ عنده حياةٌ وإن يشتاَق فيه إلى النسلِ
(البرقوقي، د.ت: ١٧٩/٣)

أما في الأندلس فعلى الرغم من شدة تأثر شعرائها بمنهج المشاركة فإن شعر التأمل ((لم يكن تقليداً من الأندلسيين لهؤلاء الأعلام المشاركة، وإنما كان إعجاباً بالاتجاه الشعري أولاً، ورغبة في إثبات مقدرتهم وتفوقهم ثانياً)) (هيكل، ١٩٨٥: ١٩٩)؛ فالشاعر نظر إلى الحياة وتغير أحوالها نظرة تأمل واعتبار، ومنه قول أمية بن عبد العزيز الداني:-

وتوسعنا حرباً ونحن لها حربٌ تضايقنا الدنيا ونحن لها نهبٌ
وجدوى الليالي تحقها سلبٌ وما وهبت ألا استرديت هباتها
وهيهات أن يصفو لساكنها شربٌ تؤمَل أن يصفو بها العيش ضلة
مراحل تطويها ونحن بها ركبٌ ألا إن أيام الحياة بأسرها
(المرزوقي، د.ت: ٩٤)

ومما تقدم نجد أن للشاعر العربي ومنه الأندلسي نظرة تأملية نابغة من رؤيته العميقة لأحداث عصره وتغير الزمان من حوله والتركيز فيها واستخلاص العبرة وإهداء الخبرة ، لذا رحنا نرصد تلك النظرة في شعر ابن جبير الأندلسي، وسيتم ذلك عبر مبحثين يتناول أولهما دوافع النظرة التأملية في شعر ابن جبير الأندلسي، وفي الآخر سوف نقف عند أبرز السمات الفنية التي ميزت شعره التأملية.

المبحث الأول:- دوافع النظرة التأملية في شعر ابن جبير

التعبير الشعري ما هو إلا تجسيداً للحالة الشعورية التي يحيها الشاعر، وتمثيلاً للتجربة الحياتية التي توجه نظرتة للأمر، وبذلك فإن الشاعر لسان حال المجتمع الذي يعيش فيه مجسداً واقعه وفي الوقت نفسه موجهاً له، والشاعر الأندلسي عاش وعاش أحياناً جسيمة، إذ لا تكاد مرحلة الاستقرار تحل حتى تندلع الفتن والحروب والاضطرابات، وذلك كان له دور في توجيهه نحو التأمل في أحداث زمانه، واستحضار التجارب في شعره لتكون دروساً توجيهية، فالشاعر ((شخص واسع

الخيال شديد الحساسية، يستجيب أوسع استجابة لمؤثرات خارجية وأخرى داخلية مما استبقاه في نفسه وورثه عن أسلافه، وهي استجابة تأخذ شكل أحاسيس ومشاعر لا تزال يُلَتم بينها مستديماً لعلاقتها من جهة ولعناصرها من جهة ثانية حتى تأخذ الشكل الخاص في أثره الفني)) (ضيف، ١٩٦٢: ٥٢)، وقد كان لابن جبير منطلقات وجهت نظره التأملية تمثلت فيما يأتي:-

أولاً:- التجارب الحياتية

تتشكل النظرة التأملية استجابة لمثير تتأثر به ، وهي في النتاج الشعري غالباً ما تكون ردة فعل من الشاعر إزاء تجربة حياتية عاشها، وحدث وجهه نحو قناعة توصل إليها، من هنا وجدنا أن ابن جبير وجود في شعره بما أملته عليه تجاربه مع الناس، ويحرص على بلورة خلاصة تجربته وبثها لمتلقيه توجيهاً منه وإرشاداً له، وإحدى تجارب ابن جبير الحياتية معاناته من تلون الناس في تعاملاتهم، وإخفاء حقيقتهم وإظهار العكس، وقد شغل هذا التلون ابن جبير مما دفعه إلى بثه في أبيات دون فيها تجربته بأسلوب يتسم بالديمومة والاستمرارية، وقد ارتبط ذلك بنظرة تأملية تمثلت في تدبر الشاعر وتفكره في علاقات الناس مع بعضهم، إذ لا يتم الكشف عن ذلك التلون إلا عند المعاملة والتجربة، وقد رصد ذلك وحذر منه قائلاً:-

الناسُ مثل ظروف حشوها صَبِرٌ وفوق أفواها شيءٌ من العسلِ

تَغَرَّ ذاتُها حتى إذا كشفت له تبين ما تحويه من دخلِ

(الخطبا، ١٩٩١: ٨٠)

كشف الشاعر في أبياته عن خلاصة تجربته ورأيه في مجتمعه، إذ نقل التجربة من الخاص إلى العام، فنلاحظ في الأبيات قوة التعبير ورصانة اللغة وجمال الصورة، وقد وفق الشاعر في تجسيد نظريته التأملية عن طريق البدء بالجملة الاسمية في (الناس مثل ظروف...) التي حققت إثبات الصفة فيهم، لينتقل في التعبير عن تأملاته بصيغة الجملة الفعلية التي تمثل أفعال الناس في زمانه بـ (تغر، تبين، تحويه) فتكرار الفعل المضارع يدل على استمرار الحدث وملازمته لمن وصف به فضلاً عن بث لمحة جمالية في صورته ليتعلق بها المتلقي، وذلك في تقابل الصور بين الظاهر

(أفواها) والباطن (حشوها) والتركيز على مسببات تلون الناس وهي مصالحهم وهوى نفوسهم، وقد كثف الشاعر في التعبير عن نظريته التأملية نصه بالصورة والأفعال ليحقق سهولتها ويُمكن المتلقي من استحضارها واستيعابها.

ومن التجارب الاجتماعية التي عاشها ابن جبير في زمانه وعانى منها، تعسف الولاة وجورهم، وهي تجربة تركت مساحة كبيرة للخيبة في نفسه جعلته ينظر متأملاً حال الإنسان فيها، وتوصله تأملاته إلى اليأس من اتعاضهم و صلاح أحوالهم، ولا يجد رادعاً لهم سوى صروف الدهر وحكمه وعدل الخالق، فقال:-

ولاية الإنسان سكرٌ فما
مغاليط الدنيا وأربابها
دعهم مع الدهر وأحداثه
دامت له دام به السكرُ
ليس عليها لامرئٍ صَبْرُ
حتى ترى ما يصنعُ الدهرُ (الخطبا: ٤٤)

نلحظ عمق النظرة التأملية التي يقدمها ابن جبير إلى متلقيه، فهو قد نظر بتدبر وتمعن في احد أسباب تهاوي المجتمع وانتكاسه، لذلك يصف أولئك الحكام بـ (السكر) أي ذهاب عقلهم، كما يصفهم بـ (مغاليط الدنيا وأربابها) لتمسكهم بالدنيا، وقد وظف الشاعر هذه الألفاظ ليباعد عن المباشرة في التصريح، فضلاً عن إعطاء المتلقي ثلوثاً لفظياً يتوافق مع تأمله، كما أن الأسلوب الخطابي والأفعال (دامت له، دام به، دعهم، ترى، يصنع) عزز نظريته التأملية في اليأس من صلاح ولاة الأمر والتأمل بعدل الله، مع توجيه المتلقي نحو الاتعاض والخوف من القادم. وتبقى التجربة التي يمر بها الشاعر اشد وقعا وأكثر تأثيراً منها لو مرت بإنسان عادي، لذا فهو لا يقف عندها متفاعلاً معها فحسب، بل ينظر بعين المتأمل إلى عواقبها ويستشف دروسها، ومن ثم يصوغها في نص شعري يوجه به متلقيه، وفي ذلك قال ابن جبير:-

تأن في الأمر لا تكن عجلاً
وكن بحبل الله معتصماً
ومن تطل صحبة الزمان له
فمن تأن أصاب أو كادا
تأمن به بغي كل من عادا
يلق خطوباً به وأنكادا (الخطبا: ٤٣)

نلحظ أن الشاعر صاغ نظريته التأملية بأسلوب خطابي وعظمي يحمل قوة الفكرة وإيجازها، فضلاً عن التركيز على الفكرة بصيغ الفعل في (تأن، تكن، كن، تأمن، تطل، يلق) مما اكسب خطابه طابع الاستمرارية وفتح آفاق البحث في منطلق تلك النظرة التأملية، إذ يشعر المتلقي أن الشاعر كشف المرض ومنح العلاج متمثلاً في حثه على عدم العجلة في حياته والاعتصام بحبل الله، وقد أثرى نصه بالإشارة إلى أن توجيهه نبع من خبرته في الحياة واستجابة لواقع الحياة الاجتماعية في عصره.

ثانياً: - الاغتراب

من الأسباب التي دفعت ابن جبير إلى النظر في حال الدنيا نظرة المتأمل فيها كان شعوره بالاغتراب، فالاغتراب يتمثل في شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع..... وما يصحب ذلك من إحساس بالألم والحسرة واليأس (ينظر: سلامي، ٢٠٠٠: ١٥١)، وهو شعور اشد قسوة من الغربة، وأكثر ما يبعث في النفس الاستغراق في التأمل في حال الزمان وجور أحداثه، وشاعرنا لم تؤثر فيه الغربة التي عاشها في رحلاته كما اثر فيه إحساسه بالغربة في مجتمعه وبين أهله وصحبته، فتغير أخلاق الناس واختلاف ولاء الصديق جعله ينظر بعين العجب وليس التأمل فحسب، ويحاول التثبت من الأسباب والوقوف على العلل ومواطن الخلل من دون جدوى فنجدته يقول:-

تغير أخوان هذا الزمان
وكانوا قديماً على صحة
وككل صديقٍ عراه الخلل
فقد داخلتهم حروف العلل
قضيتُ التعجب من أمرهم
فصرت أطلعُ باب البذل (الخطبا: ٧٧)

يسترجع الشاعر أيامه الماضية ليبث في ذلك الاسترجاع ألمه وغربته، ويوازن بين ماضيه وحاضره بخلق التقابل الزمني وبيان أثره في تغير أخلاق الناس متخذاً من الصداقة موضوعاً يبث من خلاله نظريته التأملية المستثارة من شعوره بالاغتراب، وقد جمع الشاعر بين عمق نظريته وسهولة لغته وإيجازها، لذلك جعل الجملة الفعلية في (تغير أخوان...، وكانوا قديماً...، قضيت، فصرت..) تحمل التغير والتحول الذي أصاب علاقات الأصدقاء، وليكون لحرف العطف (الواو، والفاء) الدور المميز للربط بين نظرة الشاعر التأملية فيهم، فهو يذكر العلة وأسبابها، فضلاً عن تقريب الصورة للمتلقي في نهاية كل بيت شعري في (داخلتهم حروف العلل، أطلع باب البذل) موظفاً المصطلح النحوي ليعبر عن تغير إخوانه عليه، فهم مثل باب البذل وحروف العلة، دلالة على تغيرهم وعدم ثبات ولائهم. ومن القضايا التي عانى منها ابن جبير سوء الحالة المادية في بلده وإحساسه بالحرمان ومعاناة الفقر، وقد دفعه ذلك أحياناً إلى تجاوز حالة التأمل والوصول إلى مرحلة تمنى الموت بكرامة على عيش الحرمان ومرارة الحاجة ، وهو يعايش شح النفس البشرية ما جعله يتمنى الموت إن طال حاله في حاجته وضيق رزقه، فينادى قائلاً:-

ربَّ إن لم توتني سعةً
لا أحب اللبث في زمن
فاطو عني فضلة العمر
حاجتي فيه إلى البشر
فهم كسرٌ لمنجبر
ما هم جبرٌ لمنكسر (الخطبا: ٥٤).

تستوقفنا هذه الأبيات بالتأمل العالي والمناجاة التي تصدح بها، فالشاعر يتضرع إلى ربه ويتمنى الموت على إحساسه بالحرمان والحاجة إلى الناس، وعلى الرغم من الشعور المؤلم الذي تحمله الأبيات فإن براعة الشاعر برزت في غلبة الحكمة وعلو صوت الكرامة والكبرياء، وقد خلق استحضاره لصورة الأسد معادلاً موضوعياً له ورمزاً لكبريائه وإبداعاً فنياً، ذلك إن الشعر فن و ((الفن يجبُ من معطيات الطبيعة وصورها كما يلقاها معكوسة في عدسة الذات الإنسانية، ذات الفنان التي تخصبها بأجوائها واتجاهاتها ورؤياها)) (عاصي، ١٩٧٠: ٣٦)، فضلاً عن إثراء نصه بالتلاعب اللفظي في الألفاظ (كسر لمنجبر، جبر لمنكسر) وتمثلت خلاصة تأمله في رفض طلب الحاجة من البشر، وبذلك عبر عن معاناته وأهدانا تأملاته في تجربة أثبتت حضورها وواقعيتها في كل زمان ومكان. ويبقى حب الوطن فطرة الإنسان السوي، ذلك الشعور الذي ينتصر على مرارة الاغتراب فعلى الرغم من معاناة ابن جبر في وطنه، لكنه لم يدعُ إلى الغربة بل نهى عنها، وقد استعان في التعبير عن نظريته التأملية بالطبيعة فشبه حال المغترب بالغصن المفارق لشجرته فانه سرعان ما يؤول إلى الذبول، فيقول:-

وانكر تصاريف النوى

لا تغترب عن وطن

ما فارق الأصل ذوى (الخطبا: ٣٠)

أما ترى الغصن إذا

نلاحظ أن الشاعر يجعل من الانتماء إلى الوطن قرين الحياة والغربة اقترنت لديه بالذبول، ولكي يمنح نصه التميز ويخرجه من دائرة الصورة المتداولة ونمطية أسلوب الأمر في هكذا غرض فقد خلق حواراً غايته منه إقناع المتلقي وتعزيز روح الانتماء لديه.

ثالثاً:- الزهد والحكمة

تقترن النظرة التأملية بتلك الحكمة التي يستخلصها المرء من تجربة عاشها، وفي الغالب حين يصل إلى مرحلة النظر إلى الأمور بتدبر وتفكر يكون قد زهد بمغريات الدنيا، وترفع بنفسه عن شهواتها وأيقن بزوال زخرفها فتكون له مرحلة السلام الداخلي، لذا يحرص على توثيق خلاصته تجربته وصياغة نظريته التأملية بأسلوب إرشادي توجيهي، وابن جبير بعد أن تأمل حال زمانه وتقلب أحواله توجه إلى الدعوة لإكرام النفس وصونها من محاباة الولاة وأصحاب الشأن والجاه وتقبيح فعل من يواليهم واصفاً فعلهم بالسجدة الصغرى وذلك في قوله:-

فما يملك الإنسان نفعاً ولا ضراً

من الله فاسأل كل شيء تريده

من الكبر في حال تموج بهم سكرًا

ولا تتواضع للولاة فإنهم

فقد قيل فيها أنها السجدة الصغرى (الخطبا: ٦١)

وإياك أن ترضى بتقبيل راحة

نلاحظ أن الشاعر خاطب متلقيه بلغة تقريرية مباشرة كي يجعله مشاركاً له في نظرتة التأملية، كما عمد إلى التنوع في أسلوب خطابه بين الأمر في (فسأل كل شيء...) والنهي في (ولا تتواضع للولادة..) والتحذير في (إياك أن ترضى...)، وهذا التنوع في الأساليب يخلق لدى المتلقي استمرارية معاشته للحديث وحضور ذهنه والمشاركة في ذلك التأمل، فضلاً عن براعته في توظيف الربط بين الجمل بحرف (الفاء) في (فما يملك...، فإنهم من...، فقد قيل...) لتكون أداة يكشف بها الشاعر عن العلة ويتبعها مباشرةً بالعلاج؛ فتأملات الشاعر قدمها في خطاب يراد منه الإصلاح السريع.

ومن الأمور التي تبعث على التأمل ذلك الاغترار وشدة التعلق بالدنيا من بعض الناس، وتلك حال وقف عندها ابن جبير متعباً من حال كل من تناسى ساعة الأجل المحتوم وبلغ به عمى البصيرة أن تعلق بالدنيا وشح على نفسه وبخل على نجاته فأنفق آخرته على دنياه، وفي ذلك قال متأملاً:-

عجبتُ للمرء في دنياه تظمه	في العيش والأجل المحتوم يقطعهُ
يمسي ويصبح في عشواء يخبثها	أعمى والبصيرة والآمالُ تخدعه
يغتر بالدهر مسروراً بصحبته	وقد تيقن أن الدهر يصصره
ويجمعُ المالَ حرصاً لا يفارقه	وقد درى انه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه	وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيراً لعاقبه	من انفق العمر فيما ليس ينفعهُ (الخطبا: ٧١)

عرض الشاعر في نصه التأملية شدة تعلق بعض البشر بالدنيا وحرصه على متعتها و انغماسه في ملذاتها حد تناسيه لآخرته، وإدراكاً منه لبشاعة آفة حب المال والحرص عليه وتفضيله على الدين، فقد اعتمد في نصه على الجملة الفعلية المكثفة فنجد الأفعال (عجبت، يمسي، يصبح، يغتر، تيقن، يجمع، درى، تراه...) وحقق الشاعر فيها حضوراً واستمرارية لنظرتة التأملية بإيجاد حالة التواصل بين الفعل الماضي والمضارع.

ولعل أكثر باعث للإنسان نحو التأمل والتدبر في حال الدنيا والتفكير في أحوالها، هو الفراق الذي نظر فيه ابن جبير نظرة المتأمل في الحال والمتعظ بقضاء الله، فقال:-

لما انتهت بي شدتي في مصيبي	وبرح به يأتي رجعت إلى ربي
فاستشقت روح الرضى بقضائه	فناديت يا برد النسيم على قلبي

(الساير،:٢٠٠٤:١٢٠)

ينقل الشاعر تأملاته التي خرج بها بعد معاناته فقد احد أحبته، وهو في تجربته كاد اليأس والجزع يتملكه لولا تدبره في عاقبة الأمور وتسليمه بقضاء الله وذلك التنازع بين اليأس و الرضى تمثله في قوله (انتهت بي شدتي، مصيبي، يأسى) وحالة التأمل تتمثل في قوله (رجعت إلى ربي، فناديت)، ثم يأتي بخلصة تأملاته في مناداته (يا برد النسيم على قلبي) تأكيداً منه إن التسليم لأمر الله يمنح الإنسان الإحساس بالسكينة والراحة وكأن نسيماً بارداً مس قلبه، وهي أسمى حالات التأمل وغايته.

المبحث الثاني:- السمات الفنية

بعد أن رافقتنا الشاعر ابن جبير في رحلة تأملاته، واستوقفنا نظرتة التأملية التي بثها في شعره، مستعرضين الدوافع والمنطلقات التي وجهت نظرتة في الحياة نخرج على إيراد السمات الفنية لذلك الشعر، والتي بدت واضحة في محورين هما:-

أولاً:- البناء اللغوي

يمثل النص الشعري هيكلاً يوازن الشاعر في بنائه بين العاطفة والفكرة قدر الإمكان وحسب الغرض من القول، فالشعر مهما تعددت أغراضه يبقى روحاً في سليقة الشاعر حتى يتجلى قصيداً قائم البناء، وهذه الروح تظهر في لبنات ذلك البناء حين يعمد في بنائه اللغوي إلى ألفاظ تتلاءم واتجاهه في التعبير (ينظر:العقاد، ١٩٨٨ : ١١)، وفي الشعر التأملي يحتاج الشاعر إلى لغة ذات دلالات خاصة تتوافق مع نظرتة التأملية، يعول عليها في إحكام البناء اللغوي لأبيات شعرية توصل خلاصة تجربة حياتية أو توجه نحو التزام خلق أو تجنب آخر، لذا لاحظنا ابن جبير يحرص على توظيف دلالات الألفاظ الإيحائية، مستنداً في ذلك إلى أن اللغة لها ((دورها الإيحائي في توجيه الفكر والتأثير فيه، كما أن للفكر فعاليته المتميزة في توجيه اللغة، وإعادة تشكيله العلاقات في أثناء تشكيله لنفسه)) (مبارك، ١٩٩٣ : ١٣)، وقد وجدنا أن ابن جبر كان حريصاً على انتقاء ألفاظه لتكون معبرة عن نظرتة التأملية فجاءت متسمة بالسلاسة والشمولية قريبة إلى نثرها أكثر من شعرها أحياناً، وتصاغ الألفاظ متناسقة مع الهدف منها، ولحضور التكرار وما يؤديه من دور في تعزيز الفكرة وتثبيت المعنى فاعلية وتوجيهية ، فضلاً عن دوره الإيقاعي، وغايته التوجيهية، فمثلاً نجده يوصل بكل سلاسة وعفوية نظرتة التأملية المستمدة من إيمانه إن رزق الإنسان ونصيبه من حظوظ الدنيا مكتوب له قبل أن يولد فيقول:-

وما يحرمُ الإنسان رزقاً لعجزه
حظوظُ الفتى من شقوة وسعادة
كما لا ينالُ الرزقُ يوماً بكده
جرت بقضاء لا سبيل لرده (الخطبا: ٤٠)

إن لغة الشاعر هنا اتسمت بالمباشرة في التعبير عن نظريته التأملية، إذ صاغها في جمل تجمع بين السؤال والجواب، قائلاً (وما يحرم الإنسان رزقا لعجزه) محدداً أن سبب قلة الرزق لا يكون لعجز الإنسان وتقاعسه وإنما هو مكتوب من عند الله عز وجل، ويأتي الجواب بـ (لعجزه)، وفي الشطر الثاني يقول: (كما لا ينال الرزق يوماً بكده)، فالجواب بلفظ (بكده)، فضلاً عن أن الشاعر أفاد من صورة النقيض في تعزيز قناعة متلقيه بصواب نظريته التأملية.

وأحد الدلائل على براعة الشاعر تمكنه من توظيف الطاقة الكامنة في التعبيرات المستوحاة من القرآن الكريم في معرض التوجيه والإرشاد ليعزز بها نظريته التأملية ويدعم حجته بسند لا جدال فيه، كما في قوله:-

طهر بماء النقى جناتك وأصبحت على حاله زمانك
ودار أبناء عسى أن تنال من بغيهم أمانك
واصمت إذا سمعت لغواً ولا تحرك به لسانك (الساير: ١٢٤، القيامة (١٦)

إن لغة الشاعر في شعره التأملي في الغالب يشكل فيها فعل الأمر حضوراً بارزاً، ولاسيما حين يكون الغرض من النص الحكمة والإرشاد، وذلك ما نجده في استعمال الشاعر لأفعال (طهر، واصمت) ليرددها بالأفعال (أن تنال، و لا تحرك)، كما أن استعمال فعل الترجي (عسى) منح النص تأثيراً اشد في نفس الملقى لتقبل النص، وفي ختام نصحه يأتي التناص القرآني في قوله (ولا تحرك به لسانك)، فتضافرت لغة الشاعر مع فكرته لتنتج نصاً يجمع بين عمق النظرة التأملية للحياة والنصح والإرشاد صيغ في بناء لغوي ثري، ومن الأساليب التي استعملها الشاعر هو أسلوب التحليل والاحتجاج بالدليل والبرهان، إدراكاً منه لما لهذا الأسلوب من دور فاعل في إقناع المتلقي بتأملاته التي مثلت خلاصة تجارب حياتية عاشها، ومن ذلك قوله:-

تنزه عن العوراء مهما سمعتها صيانة نفس فهو بالحر أشبه
إذا أنت جاوبت السفية مشامتاً فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه (الخطاب: ١٠٢)

نلاحظ انه على الرغم من غلبه النبرة الخطابية الوعظية في النص، فان الشاعر صاغ نظريته التأملية بنسيج لغوي يعزز تقبل المتلقي له، وذلك حين وظف أسلوب الحجاج ليحقق الإقناع، فعلو نبرة الشاعر في خطابه (تنزه) وانخفاضها وتلطفه في قوله (صيانة نفس) دعم الشاهد الحجاجي، في قوله (فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه)، وهو في استعماله لأسلوب البرهنة والحجة عزز سبل الإقناع في نفس متلقيه.

ثانياً: - الصورة الشعرية

يلزم الشاعر لإيصال نظرته التأملية تشكيل صورة شعرية يجسد فيها حالة إنسانية امتزجت فيها عمق الفكرة وشموليتها بالعاطفة وصدقها، ويكملها الخيال لتصل إلى المتلقي وتؤثر فيه، فالصورة ما هي إلا (تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية) (البطل ، ١٩٨٣ : ١٥)، وابن جبير في شعره التأملي اعتمد الصورة المكثفة القائمة على التركيز والإيجاز، وهي صور تتوافق مع أسلوب التعبير عن النظرة التأملية في الشعر، وقد انتظمت صورته في نوعين بارزين هما:-

أولاً: - الصورة التقريرية

هي تلك الصور التي يشكلها خيال الشاعر وفيها (نفع مباشرة على الدلالة الشعرية التي تحملها الصورة الشعرية من دون تكلف للتأويل والتعبير عندما تعتمد في تكوينها على عناصر يكون الإيحاء فيها مباشرة، فبمجرد أن يكتمل تكوين الصورة يكون الشعور الذي تنقله قد مثل لمداركنا في طواعية) (إسماعيل ، ١٩٦٣ : ٩٢)، ومن تلك الصورة، قول ابن جبير:-

وأغرب من عنقاء في الدهر مُغرب
أخو ثقة يسقيك صافي ودّه
بنفسك صادم كل أمر تريده
فليس مضاءً السيف إلا بحدّه (الخطبا: ٤٠)

نلاحظ أن الشاعر عبر عن قناعته بأسلوب واقعي مباشر، فالإنسان لا ينال مبتغاه ولا يحقق أمله إلا بمواجهة صعاب الحياة بنفسه بقوله (فليس مضاءً السيف إلا بحدّه)، وهي صورة جمع فيها بين نظرة تأملية عميقة وصورة واقعية متداولة ومسلم بها.

وفي الغالب لا يكون التأمل إلا لدى الإنسان الذي يطول العمر به، ويشهد تقلب أحوال الزمان ويعايش من أحداثه الحوادث الجسام، من هنا نجد يقدم خلاصة تجربته من زمان طالت به صحبته وعانى منه ما عانى، فيقول:-

ومن تظل صحبة الزمان له
يلق خطوباً به و انكادا (الخطبا: ٤٣)

فالشاعر حقق لصورته الواقعية حيوية واستمرارية حين اعتمد على التشخيص في تمثيل الزمان صاحباً رافقه زمناً طويلاً، ولقي فيه الحوادث الجسام، فضلاً عن خروجه من دائرة الرتابية في القول بالإفادة من استمرارية وحيوية الفعل المضارع.

ويستعين ابن جبير في تعزيز نظرته التأملية في شعره بالافتباس القرآني ليثبت ما أقرته نفسه من

حقيقة عبر عنها بـ (ربما) ليدعما بدليل لا يقبل الشك، فقال:-

أيها المستطيلُ بالبغي أقصر
وتذكر قول الإله تعالى
ربما أطاح الزمان الرؤوسا
(إن قارون كان من قوم موسى)
(الخطبا: ٦٩، القصص: ٧٦)

استحضر الشاعر في أثناء بث تأملاته قصة قارون وتجبره واعتارره وهو يتأمل حال الباغى المستكبر على الناس، فأعطى الشاهد القرآني تأكيداً ومصادقية لنظرته التأملية.

ثانياً:- الصورة التشبيهية

هي إحدى وسائل الصورة لتمثيل تأملات الشاعر في نص شعري، ومن مميزات الصورة التشبيهية إغاؤها الحدود بين أركان الصورة، وتبرز براعة الصورة التشبيهية في أن الشاعر فيها ينتقل من الشيء نفسه إلى شيء ظريف يشبهه، وكلما كان الانتقال ممزجاً بالخيال كان التشبيه أروع للنفس وادعى إلى إعجابها (الصاوي، ٣٣) ومن تلك الصور التي تثير الإعجاب وفيها يجمع ابن جبير بين السمة العقلية والتشبيه الفني، قوله:-

وكم فلتات للصنائع تنقي
كذا شهوات المرء إن لم تكن به
عواقبها إن لم تقع في محلها
موافقة عادت عليها بكلها (الخطبا: ٨١)
إن الشاعر استعان في رسم صورته بالاستفهام المجازي لتهيئة متلقيه لنصه وتمهيداً لإقناعه به، ثم اتبعه بالتشبيه فتكون بذلك صورته اشد تأثيراً وإقناعاً في ذهن من يقرأ الأبيات أو يسمعها، ويعمل أحياناً على التنويع في استعمال أسلوب الاستفهام الذي وظفه ليظهر من خلاله سر الحوار الداخلي للنفس الإنسانية الشاعرة في توجهها واستدراكها، وهو مبعث للتأمل الخصب (ينظر: الآلوسي ، ٢٠٠٠ : ٢٣) ومنه قوله:-

أمن بعد سبعين أرجو البقا
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي
وسبع أنت بعدها تعجلُ
يساقي بنعشي ولا أمهلُ
فياليت شعري بعد السؤال
يطول المقام لما انتقل (الخطبا: ٧٨)

نستشعر الحزن في تعبير ابن جبير الذي يكشف عن طول معاناته مع زمانه ووصوله إلى مرحلة التأمل بعد تفكير وتدبر لتحصن تأملاته في انتظار مصيره المحتوم، ويحتاج أحياناً الشاعر إلى حرية التعبير والاستطراد في تصويره فيأتي بالصورة التشبيهية تامة الأركان لتكون أسهل وأشمل

وأبلغ في تمثيل تأمله وهو ما نجده في قول ابن جبير :-
الناس مثل ظروف حشوها صَبْرٌ
وفوق أفواها شيء من العسل
تغرُّ ذائقها حتى إذا كشفت
له تبين ما تحويه من دخل (الخطبا: ٨٠)
ارتكز الشاعر في تشكيل صورته على فعل التشبيه (مثل) الذي رسم وجوده طرفين للصورة
تمثلا في التقابل الصوري بين الظاهر والباطن، فضلاً عن أن استعماله للفعل (مثل) منح الصورة
طابعها الحسي لتكون اشد تأثيراً في المتلقي، إذ شبه معدن الإنسان الرخيص وباطنه الخبيث بـ (صبر
وفوق أفواها شيء من العسل)، وهي أشياء تدرك بالتجربة فتعاضدت في صورة الشاعر
حكمة تأملية رسمها بخيال الفنان ولونها بحكمة الأيام.

الخاتمة

بعد رحلتنا مع النظرة التأملية في الشعر الأندلسي متمثلةً في شعر ابن جبير أنموذجاً للشاعر
الأندلسي الذي عاش أحداث زمانه وتفاعل مع واقعه وكانت له وقفات تأمل صاغها في شعره ، نحط
الرحال عند نتائج البحث التي توصلنا إليها، وقد تمثلت في ما يأتي:-
١- مثل الشعر التأملي لدى ابن جبير خلاصة تجارب عاشها، فالشاعر تشكلت نظرتة التأملية من
تأثره بتجاربه الحياتية ، فضلاً عن قضايا وأحداث رصدها في مجتمعه وتفاعل معها بحسه
الإنساني وتمثلها بإبداعه الفني.
٢- اتخذ ابن جبير من شعره منبراً للتعبير عن نظرتة التأملية وصبغ شعره بالوعظ والحكمة، إذ تشكل
اغلب نتاجه التأملي في موضوعات (تجارب الحياة، والاغتراب، والزهد والحكمة) وفيها نقل
تأملاته من الذاتية إلى العام.
٣- بث ابن جبير نظرتة التأملية في أبيات شعرية على شكل مقطعات أو ضمن قصائد دارت
موضوعاتها حول الواقع .
٤- وأزن ابن جبير في شعره التأملي بين العاطفة والاستدلال العقلي، وعمد إلى الاحتجاج بالنص
القرآني والترتيب المنطقي، وقد اتسم قوله بسهولة الألفاظ ووضوح العبارة وسلاسة التركيب.
٥- اعتمد شاعرنا في تمثيل نظرتة التأملية على الصورة التقريرية المباشرة التي يسهل فيها تفسير
القضايا التأملية وصياغة آرائه، فضلاً عن الإيجاز وتكثيف الصور في صورته التشبيهية.

المصادر

القرآن الكريم

- (١) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (٢٠٠٠م)، لسان العرب، بيروت- الطبعة الأولى، دار صادر .
- (٢) إسماعيل، عز الدين (١٩٦٣)، التفسير النفسي للأدب، مطابع دار المعارف، القاهرة.
- (٣) الالوسي، سلام كاظم (٢٠٠٠م)، الرؤيا والتشكيل في الشعر العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد- كلية التربية- ابن رشد.
- (٤) البرقوقى، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي - بيروت دار الكتاب العربي.
- (٥) البطل، علي (١٩٨٣م)، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس- بيروت الطبعة الثالثة.
- (٦) بعلي، رشيد (٢٠١٥م)، جبرا ابراهيم جبرا في ضوء المؤثرات الانجلو امريكية (دراسة نقدية مقارنة) دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع .
- (٧) الجويني، مصطفى الصاوي (د.ت)، البيان في الصورة، دار المعرفة الجامعية، عين شمس - الإسكندرية.
- (٨) الخطبا، فوزي (١٩٩١م)، جمع وتحقيق وتقديم، شعر ابن جبير، دار الينايع للنشر والتوزيع- دمشق.
- (٩) الخطيب، علي احمد عبد الهادي (١٤٢١هـ)، النزعة التأملية في الشعر العباسي، أطروحة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- (١٠) رزق، اسعد، (د.ت)، موسوعة علم النفس، مراجعة عبد الله عبد الدايم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة.
- (١١) الزبيدي، محمد بن مرتضى (د.ت)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة .
- (١٢) السائير، محمد عويد (٢٠٠٤)، المستترك على شعر ابن جبير (ت٦١٤)، مجلة المورد، العدد٢، لسنة ٢٠٠٤م.
- (١٣) سلامي، سميرة (٢٠٠٠م)، الاعتزاب في الشعر العباسي دار الينايع - دمشق الطبعة الأولى.
- (١٤) صليبا، جميل (١٩٨٢م)، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
- (١٥) ضيف، شوقي (١٩٦٢م)، في النقد الأدبي، دار المعارف- مصر-
- (١٦) عاصي، ميشال (١٩٧٠م)، الفن والأدب (بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية)، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية.
- (١٧) عباس، إحسان (١٩٦٣)، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، مطبعة حكومة الكويت- الكويت.
- (١٨) عبد النور، جبور (١٩٧٩)، المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، بيروت- دار العلم للملايين .
- (١٩) العقاد، محمود (١٩٨٨)، اللغة الشاعرة، مكتبة غريب - القاهرة
- (٢٠) فاعور، علي، ديوان كعب بن زهير، دار الكتب العلمية- بيروت .
- (٢١) مبارك، محمد رضا (١٩٩٣)، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي (تلازم التراث المعاصر)، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد- الطبعة الأولى.
- (٢٢) المرزوقي، محمد، ديوان أمية بن الصلت الداني، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع- تونس.
- (٢٣) المقرئ (١٩٨٦م)، (نح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت،
- (٢٤) نصار، حسين (١٩٥٧)، ديوان عبيد بن الأبرص، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى.
- (٢٥) هيكل، احمد (١٩٨٥)، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، الطبعة الأولى.
- (٢٦) وهبة، مجدي و المهندس كامل (١٩٨٤)، معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب، الطبعة الثانية، بيروت- مكتبة لبنان.